وقبل أن يتابع الإمام كلامه كان قد أومأ إلى الغلام بتقريب الحقيبة، ولم تكن "الحاجة" بعد قد تنبهت إلى وجود هذه الحقيبة التي أتى بها القادمون.. وقعت عينها على الحقيبة.. اقتربت من الحقيبة.. تلمستها بيدها.. تأملتها ملياً كأنها تقرأ الخط العربي العريض عليها، وإن لم تكن العجوز تقرأ حرفاً في العربية فإنها قد عرفت القصة بتمامها.. وأدركت الكلام المباح الذي سكت عنه الإمام هذا الصباح... وعند ذاك، ارتفع صوتها..

"إنا لله وإنا إليهي راجعونا ... لا إلها إلالاهو . محمدو رسولو الله.. الحمد لله رب العالمينا"

رفعت نظرها إلى صورة حفيدها داخل الزجاج ذي الإطار المذهب، أطالت النظر في الصورة كأنها تقف عليها لأول مرة في حياتها، أو تريد أن تبوح لهذا الوجه المبتسم بسر هذا الطلسم المكتوب على الحقيبة.. كانت الصورة تزداد ابتسامة ونضارة.. وبصوت كأنه أتى من نائم تحت تأثير تنويم مغناطيسي قالت:

يا إمام، صدقت.. فإن المرحوم جده يوم حمله إلى مدرستك القرآنية، وهو ابن خمس سنين، قال لك إنه قد وهبه لله. ويوم ودعته أنا في مطار أبيدجان، وسمحت له بالسفر وحيداً إلى ما "وراء البحر"[٦] استودعته الله، ووهبته له، أفأجزع إن تقبله الله مني؟! تنهدت.. قالت: أرجو يا إمام إذا ما كان غداً الجمعة أن تخبر جموع المصلين بالخبر؛ حتى يدعوا له، ويترحموا عليه!

دخلت الآنسة "ماتني الصغيرة" الصالة وبيدها الأواني المغسولة.. نظرت إلى جدتها، وإلى إطراق الحاضرين وصمتهم.. رأت الحقيبة وسطهم.. سمعت نحيب خالها المتقطع.. رفعت نظرها إلى صورة شقيقها.. صاحت "أخي مادو؟!" وسقطت على الأرض. ■

هوامش:

(١) في العرف الإفريقي أن يمازح المرء أخواله وأجداده بلا كلفة ولا حرج.

(٢) ترجمة حرفية لما يوجهه صاحب البيت للزوار حتى يباشروا في موضوع الزيارة.

(٣) العقال الذي يلبسه أهالي الخليج خاص في المجتمع الإفريقي للذين أدوا فريضة الحج.

(٤) أي: لم نأت لشر. ويقال هذا ولو قبل الأخبار المحزنة حفاظاً على طمأنة المزور.

(٥) يعني رسول الله ﷺ، ويتحرج المسلمون الأفارقة من التصريح باسم الرسول إكراماً له. بل يرى بعضهم ذلك خروجاً عن الأدب.

(٦) يطلق في أفريقيا على جميع البلاد البعيدة اسم بلاد ما وراء البحر.

صباح الخير يا سارة

شعر: أحمد القدومي
فلسطين

صباح الخير يا سارة
ويا أنداء نوارهْ
ويا فرحا يعايشنا
يغني الطير أشعارهْ
ويا أحلام سوسنة
يبادلها الهوى نارهْ
طفولتك التي ارتسمت
على الأزهار معطارهْ
نسجت براءة الأطفا
ل في عينيك قيثارهْ
وصغت سعادة الدنيا
فولى الحزن أدبارهْ
وغنى قلبك الشادي
فأحيا فيَّ أزهارهْ
وأهدى فجرك الآتي
لهذا الكون أنوارهْ
وعشت حبيبة الأبوي
ـن للقلبين أمارهْ
فبت بُنيّتي قمراً
يبث الليل أسرارهْ
وبات الحسن أحجية
على شفتيك يا سارهْ